

فكاهات

رقائير

جزاء المعروف (١)

كان في كلية اكسفورد فتى يدعى ادورد يتلقى العلوم العالية وينفق على نفسه من اموال طائلة تركها له والده بعد موتها . ولم يكن ادورد ممن يطلبون اللهو والمعاشره فانقطع الى الدرس وجد في تحصيل العلوم فبلغ فيها شأوا بعيدا . ولما كان ريع املاكه يكفيه للمعيشة العالية لم يهتم باحتراف حرفة بل تفرغ للكتابة والتأليف فألف رواية جاءت فريدة في بابها واقبل عليها جمهور الشعب الانكليزي واشتهر المؤلف بشهرتها وجعل اصحاب المطابع يعرضون عليه الاموال الطائلة لمشتراها . وكان ذلك فاتحة ميدان قلمه فاردف روايته الاولى بغيرها ثم بأخرى حتى عمت شهرته المملكة البريطانية واكثر البلدان الاوربية فافاده ذلك رجحا وافرا وشهرة عظيمة

وكان ادورد كاكثر الكتاب لايميل الى سكنى المدن الحافلة بالاهل فقصد بلدة صغيرة بالقرب من منبع نهر التيمس معروفة بجودة هوائها وصحة مائها وحسن موقعها واهتدى الى بناء فيها مؤلفة من طبقتين احدى السفلى منهما وجعل يجول في غابات البلدة ومتنزهاتها وبين جداولها وازهارها

(١) معرفة عن الانكليزية بقلم لسيت افندي المشعلاني

فيشحن دماغه خواطر وتصورات شتى مما تملي عليه الطبيعة ثم يعود الى غرفته وهي تطل على النهر فيجلس الى مائدته ويتناول من تلك التصورات فيرسم على اوراقه آيات بينات

وعلم ادورد بعد حين انه يقطن في الطبقة العليا من مسكنه رجل يدعى المستر بلفور وهو صاحب البناية وله ابنة وحيدة يتحدث بجمالها الرائع وحسن اخلاقها وآدابها تدعى أليس . واتفق يوماً انه بينما كان عائداً من نزهته ألتقى بأليس ولم يكن قبل ذلك يراها الا عن بعد وهي داخلة او خارجة من المنزل فرأى فيها من جمال الصورة وحسن التقطيع ما ادهشه فوقف مبهوراً يتأمل في محاسنها فحيتة بلطف فاجاب تحيتها ثم اخذ يحادثها وفي اثناء الحديث سألها عن والدها فتهددت من كبد حرى وقالت اواه لا تسألني عن والدي لكن اود اذا كان في امكانك ان تزوره وتطلع بنفسك على ما هو فيه لعلك تستطيع ان تغير شيئاً من حاله فاني لا اراه الا خالياً بنفسه كثير الافكار قليل الكلام لا يعلم احد ما يطوي وراء اضلاعه من الهموم . فقال ادورد وما سبب ذلك يا ترى . قالت أليس لا ادري سوى انني منذ عرفت العالم ارى والدي في غرفته لا يخرج منها الا الى سطح المنزل ثم يعود اليها وهو لا يزور احداً ولا يكلم احداً وتدل هيئته على كرب عظيم وخطب جسيم حل به لكنه لم يطلعني على شيء من ذلك ولا يخبرني بشيء من امره مهما اكرثت من الالحاح . ثم سقطت من عينيها دمعتان احرقتا قلب ادورد قبل ان تصلا الى وجنتيها فحيتة باحترام وسارت في طريقها

وفي ذلك المساء صعد ادورد لزيارة المستر بلفور وهي اول مرة زاره فيها فراه رجلاً مهيباً تدل هيئته على رغب الصدر وعلو الهمة ولكنه كما وصفته ابنته سكوت حزين تظهر عليه علامات الانقباض وشروء الفكر كمن سقط في لجة اليأس وايقن عدم النجاة منها . فجعل ادورد زيارته هذه الاولى مختصرة ولم يزد الحديث فيها على المجاملة وتأسيس المودة المبنية على ما بينهما من الجوار الى ما شا كل ذلك من احاديث التقرب والمطايبة ثم استأذن وانصرف وكان المستر بلفور يجيبه بكل رقة ولطف ولكن بغاية الاختصار . ورأى ادورد من نفسه عاملاً يدفعه الى التردد على المستر بلفور ففعل ووجد هذا في محادثة ادورد ارتياحاً وانبساطاً فقال اليه وجعل يظهر له الوداد شيئاً فشيئاً حتى اصبغ ادورد كانه ابنه وصار يزوره كل يوم ويكلمه بكل دالة وبدون كلفة . ولما تمكن الانس بينهما اخذ يسأله عن سبب كدره وانقطاعه عن الناس فتهند بلفور وانبعث من صدره نفس كالنار ثم نظر الى ادورد وقال اذا شئت ان تعرف سبب كدري وتاريخ حياتي فاسمع واعتبر واتخذ لك من حاتي نصيحاً ونذيراً

انني كنت تاجراً في مدينة لندن وكان لي ولع شديد بالتجارة فابتدأت ولي من رأس المال مثالية ورثتها عن والدي فلم تنته السنة الاولى حتى ضاعفت رأس المال فسررت جداً من الربح ودفعني ذلك الى زيادة الاجتهاد فضاعفته ايضاً في السنة الثانية ثم ضاعفت المجموع في السنة الثالثة ولم ازل ازيد في رأس مالي وتجارتي واجتهادي حتى اصبحت يوماً فوجدت ان ثروتي صارت تقدر بمئتي الف ليرة . وكانت نفسي قد تعبت لفرط ما

اجهدتها الا انه لم يعد في امكاني التخلي عن الاعمال مع اتساع تجارتي
وامتداد معاملاتي الى كل ناحية . وكان يتردد على محلي فتى فقير الحال
فاجود عليه المرة بعد المرة بما يفرج كربته ورأيت انه يطمع مني في اكثر
من الاحسان وآنست فيه ذكاءً وتوقد خاطر واستعداداً لتعاطي الاشغال
فعرضت عليه الاستخدام في محلي فقبل شاكرًا فعينته لالحال ولم تمض على
هذا الفتى ايام كثيرة حتى ظهرت مهارته واستعداده للتجارة فحملت ارشده
وادربه وبسطت يده في محلي وفي وقت قصير جعلته القيم العام على كافة
اعمالي فاصبح في يده العقد والحل يتصرف في تجارتي وسائر اشغالي كما
يشاء بلا رقيب ولا مناقش

ولكن الغدر طبيعة في اكثر الناس والانسان مركب على الطمع
والبغي فان هذا الحمل الذي ربيته بيدي لم يكن سوى ذئب خاطف واص
خائن لانه لما رأى ان كل شيء قد اصبغ في يده وموكولاً الى عهده
وتحقق ثروتي الطائلة لعب برأسه شيطان الطمع فنقل جميع اموالي واملاكي
الى اسمه وحرمني ثروتي بأسرها ثم طردني من محلي كبعض الخدم . فخرجت
لا املك شروى تقير وليس في يدي سلاح على هذا الخائن الخروجي من
عهدة جميع اشغالي اليه فاخذت اليوم نفسي على ما فعلت وندمت ولكن بعد
فوات الامر حين لم يعد يتفع الندم ولا يمكن تدارك الحال . ولما رأيت نفسي
قد صرت الى ما صرت اليه وذهب كل ما كنت فيه من الغنى والوجاهة
تعذر علي البقاء في لندن فهجرتها وجئت الى هذه البلدة وهذه البناية ملك
لزوجتي فسكننا هنا ولها في هذه الناحية اراض ذات ريع زهيد نعيش منه .

وبناءً على ما اُثرت في هذه الفعلة الشنعاء كرهت الجنس البشري عموماً وآليت على نفسي ان لا اتداخل مع مخلوق آخر سوى اهل بيتي . ومما زاد احزاني ان زوجتي توفيت بعد وصولي الى هنا ببضعة اشهر تاركة لي طفلة صغيرة هي أليس ابنتي التي رأيتها الآن . فدفنت فقيدتي تحت ظل تلك الاشجار في الحديقة وكان ذلك منذ عشرين سنة فلم اخرج من ذلك الحين الى خارج بيتي ولا اقدر ان اجيل في فكري شيئاً سوى خرابي وتنغيص حياتي والويلات التي جرّها على رأسي ذلك العاتي العقوق فالويل لي في الدنيا وله في يوم الموقف الرهيب

وزاد تأثر المستر بلفور فاحمرت حدقاته وقطب حاجبيه واجتمع الزبد على اشدائه واصبح كمن مسّه جنون فجعل ادورد يسليه ويهوّن عليه الامر وقد اخذته عليه الشفقة والرحمة وجعل من واجباته اليومية ان يزور المستر بلفور فيجتهد في تسليته عما مضى خوفاً عليه من ان يودي به الهم والحزن وشفقة على ابنته التي لا ترى سوى والدها ولا تسمع سوى ترديد احزانه واشجانه

وكان اذا دخل ادورد الى زيارة المستر بلفور يطلب اليه ان تخرج أليس فتتزه في الخلاء رفقا بصحتها فكانت تخرج في اكثر الايام عند المساء . وحدث يوماً انه بينما كان ادورد عائداً من نزهته صادف اليس في احد الشوارع عائدة الى البيت ورفقتها شاب لا يقل جماله عن جمالها وهما سائران معاً كملكين او كبدر قسم نصفين فاستغرب ادورد مرافقة اليس لهذا الفتي ولما اقترب منهما رفع قبّعة مسلماً فاستوقفته اليس ثم عرفته برفيقها واسمه

المستر وليم برون وقالت لادورد ان الاتفاق ساقني الى التعرف بالمستر برون ورأيت فيه مشابهة لاحوالي فتصادقنا . ثم التفتت الى رفيقها وقالت له هذا هو المستر ادورد الذي ذكرته لك والآن بما ان والدي قد اصبغ وحده فاني استأذنكما في الاسراع اليه وادعكما تتمان نزهتكما وتحكمان بينكما عري الصداقة . قالت ذلك ثم ودعتهما وتوجهت الى البيت . وسار ادورد وليم يتحادثان فعلم ادورد ان وليم بعد ان اتم دروسه في المدارس العالية عاد الى والده في تلك البلدة فوجد ان والدته قد توفيت ورأى والده قلق البال مضطرب الاحوال مشئت الفكر لا يخرج من بيته ولا يهتم بشيء سوى الصلاة والابتهاال وهو يقضي اكثر اوقاته في الكنيسة جاثيا امام مذبحها مقدما تضرعاته بغاية الخشوع والاسف . وان وليم لما رأى والده على هذه الحال لم يمكنه تركه فاضطر ان يبقى معه ولكنه سئم حياة الوحدة وضجرت نفسه من الخلوة لو لم يتعرف اخيرا بأليس فصاري يرى بها بعض السلو والاستثناس . ثم قال وليم لادورد وقد بلغني من أليس حسن معاملتك لوالدها فهل لك ان تتنازل لزيارتنا لعلك تتمكن من حل عقدة لسان والدي كما فعلت بابيها . فتبسم ادورد وتعجب من وجود شخصين غربي الاطوار في بلدة واحدة معه وتحت عنايته فتوجه مع وليم الى بيته وتعرف بوالده المستر برون فراه في اطواره كالمستر بلفور ولا يختلف عنه الا في ان هيئته تدل على المسكنة والانكسار وانه يكثر من الصلاة والتضرع خلاف ذاك

وجعل ادورد يقضي اكثر اوقات فراغه في طبيب بلفور و برون وقد رأى في ذلك لذة فتمكن اخيرا من اخراج بلفور من بيته فصاري زور ادورد

في بعض الليالي ويسهر عنده الى الساعة الحادية عشرة فتأتي أليس وتأخذ والدها من عنده بعد ان تلقي عليه نظرة تعرب عن شكرها ومعرفتها جميلة . ومال ادورد الى جمع بلفور وبرون يوماً معاً ليرى ما يكون من امرهما فسعى جهده في اقناع برون ان يزوره حتى وعده ان يأتيه في تلك الليلة فيقضيها بلمب الشطرنج . ولما كانت الساعة الثامنة جاءه على حسب وعده فاستقبله ادورد بالترحاب واجلسه ولم يكده يستقر به الجالس حتى قرع الباب فعرف ادورد ان القارع المستر بلفور فقام وفتح الباب فدخل المستر بلفور الى وسط الردهة ولكنه رأى رجلاً غريباً في الغرفة فوقف مفكراً . وكان ادورد قد اغلق الباب وعاد فقال له ان عندي الليلة زائراً وارجو ان يكون لنا نحن الثلاثة من الاحاديث ما تتمكن به من صرف الوقت فأذنالي ان اعرف بعضكما ببعض . ثم التفت الى برون وقال له اعرفك بالمستر جون بلفور والتفت الى بلفور وقال له اعرفك بالمسترتوما برون . فما اتم ادورد هذه الكلمات حتى وثب المستر برون من مكانه كمن مسه سلك كهربائي اما بلفور فجحظت عيناه وتوردت وجنتاه وصاح بصوت يخنقه الغيظ وقال ماذا اسمع . . اسم توما برون . . الحية الرقطاء اللص الخاطف النذل الجبان . نعم ان توما برون هو هو الرجل الذي احسنت اليه فسلمني مالي وجر علي الويل والخراب فلنلعنه السماء ولنلعنه الارض ولنصعقه دعواني المتصاعدة ليلاً ونهاراً الى عرش المنتقم الجبار . قال ذلك وهم بالخروج فوثب اليه برون وامسكه من ثيابه ثم جثا امامه فقبل قدميه وقال مهلاً يا مولاي بلفور اناشدك الله ان لا تزيد حياتي مرارة وقلبي انكساراً فاسمح لي ان

اسرد لديك عذري واستغفرك عن ذنبي . ودخل ادورد بينهما وقد استغرب هذا الاتفاق العجيب فاجلس بلفور رغماً عنه واخذ برون يقص ما كان من حديثه فقال

أجل ايها السيد الكريم انك انت سبب نعمتي لانك اخذتني فقيراً وجعلتني قياً على جميع اعمالك واموالك وقد دار في راسي الطمع او حب الغنى فزيت لي نفسي الخبيثة ان اساوي نفسي بك ثم لم اكتف بذلك حتى اقدمت على ما فعلته فتركك فقيراً وتملكت مقتناك وقد اشتغلت سنتين بجد ونشاط فضاغت المال . ولكن بعد ذلك هب الشرف من رقاده واستيقظ ضميري بعد موته فندمت على ما فعلت ورأيت ان اتدارك ما جرى بارجاع مالك مع فوائضه واخذ ما حصلته انا بجدّي فبحشت عنك فلم اقف لك على اثر فاعلنت في الجرائد مدة ثلاث سنوات ولم اظفر بك ولم يطمئن ضميري قط فاعتزلت الاشغال وجئت هذه البلدة مع زوجتي وولدي فانقطعت عن العالم واخذت اكفر عن ذنبي بالصلاة والتقشف والزهد مدة هذه السبعة عشر عاماً وقد ماتت في اثناها زوجتي فزادت احزاني وضاعفت مصائبني

ثم جعل الاثنان يتعائبان ويستفسران وادورد يعجب مما جرى على غير انتظار حتى آذنت الساعة الحادية عشرة وجاءت أليس لتأخذ اباهما حسب العادة فسمعت بعض الكلام فوقفت على الباب متأملة واذا بوليم قادم ايضاً فانه كان قد استبطأ والده وجاء ليسأل عنه فوقف مع أليس واشتغلا بحديث خاص

وحانت من ادورد التفاتة فرآها فهب اليها وادخلهما فاطلعهما على ما جرى وكان برون لا يزال يستغفر بلفور ويلج عليه في قبول ارجاع امواله مع فوائضها وقد بلغت نصف مليون من الليرات . ولما طال الجدل وقف ادورد فقال لا اظنكم تحجمون عن اقامتي حكماً في الامر فان المستر بلفور لم يعد له حاجة بالمال لانه أصبح شيخاً لا يقدر على تعاطي الاشغال وله هذا البيت الذي يكفيه لمعيشته ولكن لما كانت هذه الاموال حقه فيجب ان تسلم الى ابنته أليس . واما المسيو برون فجزاؤه على فعلته هذه ان يؤخذ منه كل ماله ويعطى لابنه وليم وبما اني رأيت لابل تحققت وجود الحب الصادق بين وليم وأليس فاقضي بان تكون خاتمة هذا الامر اقترانهما فيكون في ذلك تجديد صلة المودة بين الطرفين وسعادة البيتين جميعاً

فتبسم بلفور وقد اعجبه هذا الحكم وانحدرت دمعتان من عيني برون علامة السرور وكان بعد ذلك ان اقترن وليم بأليس واقاما يتمتعان بتلك الثروة الواسعة وافرزا لوالديهما مكاناً يقضيان فيه بقية الحياة ويتحادثان ليلاً ونهاراً فيعوضان عن سكوتها مدة تلك العشرين سنة

اما ادورد فكان الضيف الوحيد المعزّز المكرّم عند تلك الأسرة لما انه كان هو السبب في اجتماع شملهم وما صاروا اليه من الهناء والرخاء فلبث معهم كانه واحد منهم الى ان فرقت بينهم الاقدار